سيرة الحُب

عبد الهادي مصطفى ـ مصر

لوَ أنْ هُنالِك مُسابقة فِي البؤس لفُزت بالمركز الأول عنَ جدارة وبدون مُنافسة تُذكر، فجأة وجدت أُمِي وأبي وأخوتي الثلاثة رحلوَا فِي حادث سيارة أنجاني الله منهَا بأنهُم تركوَني عِند خالتي التي تسكُن في الشقة المُقابلة لأظَل هُناكَ ما تبقى من عُمري لكُوني مقطوَع من شجرة لا أملُك سوَاها، ما هُون عليَّ الأمر هُوَ وَجوَد"بهجة" أوَل فتاة عرفتها فِي مثل عُمري تمامًا سبع سنوات تقاسمت معي بجانب حُزني، البؤس، والفرح، والحُب فِي النهاية.

– ساهِر، ساهِر أينَ أنتَ؟

كّانت بهجة تصيح مُنادية أسمي مِن مُنتصف المنزل لأنضم إليهِم على الطاوَلةِ المُجهَزّة بطعام الإفطار كما أعتدنا عليها دائمًا لتبدأ الأُم بشقِ الصمت الذي يُخيم علينا:

حبَيبِي ساهِر، كُل جيدًا ستَظَل طِوال اليوم فِي المُحاضرات اليوم.

لترُد بهجة ساخِرة: هذا هوَ الحُب الذي يتحدثُون عنه فِي الأفلام إذاً!

وَكزَّتهَا خالِتي مُعاتبة: كُفِي عن إحراج "ساهِر" تعلمين أنهُ مُتوَتر بسبب حضُوره اليوم للجامعة لأول مرّة!

تَقف بهَجة وَاضِعة يدها على خِصرها بحركةٍ مسرحية: وإيه يَعني يا سِت ماما،

أنَا أيضًا سأذهب إلى الجامعة للمرّةِ الأولى ولكنني كُلية آداب نَصيرة الشعب، أمَا هوَ فكُلية السفاحين كُلية الطب!

لأوَل مرةٍ تدخل "ساهِر" فِي الحُوارِ وكأنه يُعلن انتهاء الجدل: لوَلا أنكِ ذاكرتي بدلاً من الهَيْام فِي أغانِّي السِت لكُنتِ معِي الآن.

دوَن أنْ تظهَر ملّامح الضيق على "بهجة" ردت وكأنها مُعتادة على التوبيخِ: وما المُشكلة!

ثُم رفعت رأسها نحوَ الأعلى متباهية وأضافت: أنَا أقتَل الناس بالفَنْ والأدب وأنت تُعالجهم، إنهُ عدل الله !

لا أستطيع إنكار مقدار عشقِي لِخالتي "بهية" وأبنتها "بهجة" فهِي بهجة حقًا استطاعت إخراجي مِن حالةِ الحُزنِ كان مشهد خرُجها مِن غُرفتها يوم وفاة عائلتي مؤثرًا قامت بجمع جزءًا مِن ملابسها ووضعتها في حقيبة كبيرة لا تقدر على حملها وخرجت لتقول لِيِّ: أصبحت غُرفتي الآن هِي غُرفتك، ومنزلنا منزلك، سأنام مع أُمي وأبي من اليوم.

عَقب الانتهاء مِن وَجبةِ الإفطار حمَّل "ساهِر" حقيبته وأطمئن على استقرار روَاية "ماجدولين" بها بسبب اعتياده على القراءة فِي طريقه إلى نفق الشاطبي، وكان بصحبته "بهجة" التي تحتضن أغَراضها وتسير بخجلٍ خلفه كأنها تحتمي بظلهِ بسبب بُنيانه القوي، وَقفت خالتِي على باب المنزل وهِي تتلوَ بعض آيات القرآن

وتُوصيني ألا أترك بهجة وَحدها .. وأن أعُود معها.

فِي الطريق كّما اعتادت "بهجة" مُنذ الصغر لمَ تعبُر طريقًا واحدًا إلا وأنا أُمسك يدها، كّان بيننا حُبًا نُدرك ذلَك جيدًا ولكننا تربينا على إخفاء ذلك الحُب، الحُب الذي يُوقظني مِن نُومي فبعد أن كبرت انتقلت إلى شقتنا القديمة، على أصوات أُم كلثوم وهي تُغني " إلا عيونك أنت دول بس اللي خدوني وبحبك أمروني" تأتي من غُرفة بهجة كانت جميعها إشارات وكُنت أعلمها جيدًا رغم ذلك أتجاهلها.

***

وَقفت أمامَهَا مُتوترًا لأقول بصوتٍ هادئ لا يظهر عليه أيَّ اضطراب: خالَتِي، هُناكَ أمرٌ هامَ أرغَب في الحديث فيهِ معكِ.

أشارت لِيِّ بالجلوس بجانبها دوَن أن تنطق كلمة كأنها تخاف تشتتي: أنتِ تعلمين إنني الآن في السنة الثانية لِيِّ في الكلية، مثل بهَجة وأرغب فِي الحديث معكِ، ترَّك لِيِّ أبي بعض المال فِي البنك يكفيني حتى أُكمل تعليمي، إضافة إلى أنني أمتلك شقت العائلة وأعيش فيها .. لذلك لنَ أتردد فِي القُول أنني أرغب فِي أُعلن خِطبتي.

ظهر الارتباك على خالتِي واضحًا بعد أنْ فَهَمت قصدي بأنني أرغب فِي الزوَاج ولكن حاولت أن تُداريه قائلة:

يا ألفِ نِهار أبيض يا حبيبي، أخيرًا كبرَّت وسأزوَجك بنفسي قبل أنْ أفُوَّت الدنيا بكُل ما فيها..

قَبل أنْ تبدأ الأفكار بالعبث برأسها أضفت:

خالَتي أرغب في الزواج مِن بهجة، لقد أخرت ذلك القرار كثيرًا حتى أكُون كبرت بالشكل الكافي وعِشت وحيدًا تجنبًا لألسنةِ الناس الحادة .. أنتظر قرارك يا خالتي فكري جيدًا.

تركتها والدهَشة تعلو وجهها، قد تكُون دهَشة الصدق الذّي حل عليَّ أوَ دهشة أنني فكرت في الزوَاج ببهجة من الأساس ولكنني كُنت قد صليت استخارة وتركتُ الأمر بين يديَّ الله وخُيوط القدر.

***

أُمي ألم يعُد ساهِر بعد؟

نطقت "بهجة" تلِك الكلمات وهِي تتمنى أنْ تُخبرها أُمها بِما يُكذَّبه قلبها، "ساهِر" ليْس بخير، لترُد الأم:

أبدًا يا أبنتي كادَّت قدمي أنْ تتجمد مِن الوَقوف، ركضت بهجة إلى غُرفتها دون أن تُكمل الأُم كلماتها وأخذت تتذكر كيف كان يتعامل معها "ساهِر" حَنِّيته المُفرطة، وخُوفه عليها الذي يجعله يتسلل إلى داخل المُجمع كليات الشاطبي حتى يطمأن عليهَا، لم تفضحُه من قبل وتُخبره بأنها تعلم باختلاس النظر إليها أثناء تناوَل الطعام،

لمَ تنسّ يومًا وَعد ساهِر لهَا بألا يترُكها، كانْ الوَعد مُنذ زمان قَبل حادث أهله ورحيلهم على أنغامِ السيدة أُم كلثوم وأغنية "سيرة الحُب".

ألنّ تذّهبي إلى كُليتك يا "بهجة"؟

نطّقت الأُم تلِك الكلمات والحسرة تملأ فيها بسبب غياب "ساهِر"، لترُد عليها بهجة بصوتٍ مُتحشرج مِن كثرة البكاء.

وكيف أذّهب يا أُمي وحسُّه وأخباره غائبة عَنّا مُنذ أسبوع؟ لقد ذهبت إلى كُليته وسألت عنه، وأقسام الشُرطة والمستشفيات لمَ أترُك ثُقبًا واحدًا في الإسكندرية إلا وسألت فيه.

***

فِي إحدى المستشفيات التي تقع على أطراف الإسكندرية يقَف طبيب وممرضة بجانب سرير مُلقى عليه "ساهِر" ليسمع بعض كلمات "يُعاني من فقدان ذاكرة"، "السبب غير معروف"، "يجيب أن يستفيق في أيَّ لحظة الآن" وفُور أنْ اخترقت الكلمات أُذنه أفاق تدريجيًا بجسدٍ خامل وعينان يتناوبان على النوم والإفاقة بسرعة حتى أستيقظ سريعًا وصرخ: أَبي .. أُمي أين أنتُما!

ليركُد مُجددًا على السرير وَسط نظرات الذهول والدهشة التي طالته.. بعد ساعاتٍ من الحادث أفاق "ساهِر" ليجد أمامه الطبيب الذي سأله مباشرةً بكلماتٍ خالية من أي مشاعر: بماذا تشعُر الآن؟

تجاهل "ساهِر" السؤال بسبب الآلام التي تعصف برأسه ليُبادر هوَ بالسؤال كأن الحديث قد بدأ للتو:

أيَن أنا؟

يرضخ الطبيب إلى سؤال "ساهِر" ويقول: في المستشفى بعد أنْ أُصبت بحادثٍ اليوم، لا أحد يعلم عنَّك أي شيءٍ لا تملك هاتف أو أي شيء يحدد هويتك.

فكر "ساهِر" قليلاً ثم قال:

أنا لا أذكُر أيَّ شيء، كأنني وّلدت الآن !

رد عليه الطبيب بابتسامة خجلة لا تنُم على أي شيءٍ:

لقد فقدت ذاكرتك مؤقتًا، ذلَك تأثير عادي إثر اصطدام رأسك بعد الحادث الذي نجهله، ولكن لماذا صرخت منذ قليل أبي وأمي؟

نظر "ساهِر" إلى الطبيب نظرة يخالطها الدهشة:

أنا صرخت؟ متى؟

أوضح الطبيب:

يبدوَ أن ذاكرتك مشوشة إثر مرورك بحادثٍ فِي الماضي سنرى ذلك الأمر.

فور أنْ رحل الطبيب أقترح على الممرضة الاتصال بالشرطة سريعًا والتي بدورها ستقوم بتقصي أمر الفتى وتبحث فِي شأنه.

فِي منزلِ "بهَية" كانت تجلس على الأريكة مُحتضنة "بهجة" التي تبكي إثر فقدها لكُل ما يملكُه قلبها ليقطع نُوبة البكاء تلِك هاتفها الذي يرن بأغنية "سيرة الحُب" التي تطاردها فِي كل وَقت – بإرادتها- علمت بهجة من المُكالمة أنْ "ساهِر" في المستشفى إثر فقده الذاكرة وأن الشرطة تعرفت على معلوماته الشخصية بعد سرقته من كتاب كلية الصيدلة التي يمتلكها لترتدي ملابسها على عجلٍ وتصحب أمها إلى المستشفى.

فُور أنْ دخلت بهجة إلى غُرفة "ساهِر" حتى بحثتَ عنه بأعينٍ تَعبة يُغالبها البكاء وركضت باتجاهه لتحتضنه ناسية كُل ما يُحيط بها حتى أُمها، وهمست فِي أُذنه:

"تعاهدنا على أنْ نبقى معًا للأبد .. وسنبقى".

هدأت بهجة ونال "ساهِر" نصيبٌ مِن قُبلات خالته "بهية" ودفع الفضل "ساهِر" إلى السؤال عنَ اسمه وكُل ما يخصُه وهنا انكمش دور "بهجة" ليأتي دور خالته والتي بدأت باسمه قائلة:

اسمك هو ساهِر رَاشد مبروَك أسمتك أُمك بذلك تيمُنًا بسهرك طوال الليل فور ولادتك وبكاءك.

وأضافت مازحة: لقُد وَلدت بأعيُنٍ مِفنجلة يا وَلد، تبتلع شمس النهار.

وفور أن أنهت جملتها نادت عليها المُمرضة لكون الطبيب ذهبت سريعًا لملاقاة الطبيب للاطمئنان على حالة الذي أخبرها بأن حالة "ساهِر" بعد أنْ عرف حالته

منها ليست مستقرة فهو نالّ ضربة قوية على مؤخرة رأسه بعد مروره بحادث مجهول قد يكون حادث سيارة كُسر على إثره ذراعه، وأكد أنْ عُودة الذاكرة فِي تلِك الحالة تكُون صعبة بل أقرب إلى المستحيل في الوقت الحالي على الأقل.

فُور أنْ أنهى الطبيب كلامه خرجت مِن الغُرفة وهِي تدرك ما عليها فعله الآن.

***

فُور أنْ دخلت بهية إلى ساهر أخبرته أنْ أهله قد توفوا منذ زمن دوَن أن تذكُر أيَّة تفاصيل أخرى ولا تسرد ما يفيض بالآلام أو يهيج ذاكرته نحو الماضي، وأكدت أنه الآن يُعد شخصًا وَلد مِنْ جديد ويقف الآن أمام خيارين أما أن ينبش بالماضي ويقتحم قبره ويُخرج كُل الكوابيس التي بداخله أوَ يستكمل حياته كما هي.

لمَ يرُد "ساهِر" عليها بل نظر إلى "بهجة" نظرةً ذات مغذى وقال: أنا فقدت ذاكرتي .. لا أذكُر شيئًا ولكنني أعرف شيئًا واحدًا الآن أنني أُحبك!

خجلت بهجة على غيرِ عادتها مِنْ كلماتِ "ساهِر" وهُنا تدخلت خالته قائلة: لقد ترددت فِي البداية عندما طلبت يد بهجة منَّي، أعلم أنك تُحبها ولكن ما رأيته يجعلك لا تجيد التعبير عنَ ما بداخلك يا "ساهِر"، لقد ولدت اليوم مِن جديد تخلصت مِن حُزنك وآلمك حتى وإن عادت ذاكرتك إليك ستكُون قد تخطيت الماضي، لا أعلم يا ولدي ما الذي حدث لكَ تحديدًا ولكن كل ما أدركه أنك الآن

"ساهِر" جديد عُدت كما الماضي تماماً.

وقامت باحتضانه بعدها لتبكي في أحضانه، ويبادلها هوَ أيضًا البكاء ويقول: أشعُر أنني لم أحتضن أحدًا منذ عشرات السنين.

واختلست الأم النظر إلى ابنتها قائلة بنبرةٍ ذات مغزى:

إن كُنت قد فقدت الذاكرة فتلِك الطفلة البريئة لن تنسى.

خجلت بهجة من كلماتها، وقالت الأم مداعبة تنكسفي الآن آه من جيل هذه الأيام أعلم يا بنت أنه لم يحتضنك ولكنني أمازحك فقط.

عقب مرور خمسة أعوام

دَاخل منزله يجلس مُحتويًا "بهجة" بين ذراعيه وهُم يستمعون إلى أغنية أُم كلثوم "سيرة الحُب" وطفلتهم "سُهيلة" التي اسماها على اسم أمه تركُد بجانبهم ليهمس فِي نفس الوقت الذي تغني فيه أُم كلثوم

"وقابلتك أنت لقيتك بتغير حالي "

لقد كُنت أتذكر كُل شيئًا مُنذ إفاقتي في المستشفى، ولكنني تعمدت أن أنسى منذ أن أفقت حتى أبدأ مِن جديد لنُحيي سيرة الحُب ونظل معًا إلى الأبد.